محاضرة رقم4

فريدريك نيتشه (1844-1900)

لم يعد عصر "نيتشه" معزولاً عن التحولات التاريخية الكبرى التي سجتلها مواقف الفلاسفة في المرحلة الحديثة، ورغبة التجديد الذي يسعى إلى تحقيقة، بعد أن حاولت العقلانية والمثالية السطو على العقل وتبرير وجوده على الساحة الفكرية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية، فكانت مواقفه موجهة إلى تغيير بوصلة العمل الفلسفي الذي سيثمر في توسيع المنحى النقدي وجر الفلسفات السابقة إلى المحاكمة الفكرية والانقلاب عليها من باب تشخيص الوجه الحقيقي للفعل الفلسفي المتحرر من الهزال الميتافيزيقي الذي تمسكت به الفلسفة في السابق، فما طبيعة النقد الذي باشره في تشخيص الاختلالات التي أصابت الفكر الفلسفي المعاصر؟

1- نقد الأخلاق:

اعتقد "نيتشه" أن النفاذ إلى العمق الأخلاقي وفهم المكوّن الفكري له، يقتضي الاقتداء بمنهج خاص للبحث في موضوعاتها، فهذا المنهج يندرج في ثلاث خطوات:الأولى أن نصنف الأحكام الأخلاقية التي صدرت في الماضي عند مختلف الشعوب، ومن هذا التصنيف يتوافر لدينا تاريخ عام للأخلاق. فإذا انتهينا من عرض هذا التاريخ، فعلينا أن نقوم بتفسير الوقائع الأخلاقية ومعرفة دلالاتها، فنقوم عندئذ بتحديد الجماعة من الناس التي كانت تسود عندهم هذا النوع من الأخلاق، وما طبيعة الصلة التي تربط الجوانب النفسية بالقيم الأخلاقية التي اتخذوها. ثم تلي هذه الخطوة، خطوة أخيرة، هي خطوة الحكم على كل صنف من هذه الأصناف، ومنها تتوفر لدينا معرفة كافية على أيّ الأصناف أقدر على البقاء في الحياة والارتفاع بها والسموّ بطبيعتها.

من خلال هذا العرض التاريخي والمنهجي، استخلص "نيتشه" هذه الحقيقة، وهي أن هناك أنواعاً عدة من الأخلاق، وأن لكل نوع منها طابعه ومميزاته، وبالتالي لم يعد هناك مصدر واحد للأخلاق، وإنما الأخلاق تنشأ عن مصادر عديدة، وأن الأحكام الأخلاقية ليست واحدة، مما يفضي الأمر إلى ضرورة التمييز بين الفعل الأخلاقي وبين الحكم الأخلاقي، ومن هنا يظهر جلياً أن الحكم الأخلاقي ليس ثابتاً ومختلف باختلاف الناس وتحكمه دوافع عديدة عند إصداره. "فالجينيالوجيا هي العنصر التفاضلي والفارقي للقيم، ذلك العنصر الذي تصدر

عنه القيمة ذاتها، إنها تعني الأصل والمولد ، لكنها تعني كذلك الفوارق والبعد"[1]، والغرض من هذا هو البحث عن أصل الأحكام الأخلاقية.

انطلاقاً من هذا الوصف التاريخي، فضح "نيتشه" الأوهام التي استقرت في المخيال العقلي للفلاسفة والانسانية جمعاء، كاشفا بذلك الغطاء الحقيقي الذي كان يلف المسار الأخلاقي، فانتهى إلى نظريته المشهورة في التفرقة بين نوعين من الأخلاق: أخلاق السادة وأخلاق العبيد، أي الأخلاق التي كان مصدرها الممتازين من الانسانية، والأخلاق التي كان مصدرها رعاعها والطبقات المنحطة فيها، لذلك سمحت له النظرة الجينيالوجية من أن ينقب في مسألة " التراتب التي تعتبر قضية رئيسية"[2] تفضي إلى معرفة التعارضات الناشئة عن التصنيف الأخلاقي إلى أدنى واعلى ، وإلى وضيع ونبيل وشرير وطيب.

هذا التوجه الأخلاقي الذي وصفه "نيتشه" استند إلى فكرة نشوء الحضارات الكبرى التي اجتاحت فيها الشعوب القوية الشعوب الضعيفة مغيرة على كل الأراضي التي تمر بها، وعلى هذا النحو نشأت الحضارة اليونانية، والرومانية والجرمانية، فإذا مرت هذه الطائفة بشعب من الشعوب فرضت عليها سلطانها، واحتقرته وباعدت ما بينها وبينه من مسافات، مكوّنة في ذلك طبقة خاصة لها من مواصفات السمو والعلوّ عن الطبقة المسودة، وبذلك أصبحت هذه القيم الأخلاقية تؤكد على معالم السيادة والسيطرة والاستمرار، مبجلة كل ما له صلة بالنفوذ والقوة والغزو والحرب، أي كل ما يعبر عن مصادر الحيوية والمجد الذي تتطلبه الحياة.

2-نقد العقل:

يعطي لنا الملمح التاريخي، أن العقل والعقلانية كانا باستمرار عرضة للنقد والتجريح والشك في قيمتهما، وقد توالت هذه الصورة عند توسع التفكير العلمي الذي كشف عن اجتياحه المعاقل الفلسفية وانزياح المفاهيم التقليدية المشكلة لها، فلم يتوان "نيتشه" من مباشرة نقده الجذري الذي طال الأسس التي قامت عليها منظومة الفكر الفلسفي ومنظومة العلوم الوضعية، "إن الحضارة اليونانية هي القادرة على أن تلهمنا ما هي مهمة الفيلسوف، وهي الجديرة بتبرير حقيقة الفلسفة"[(1)].

---

[1] Deleuze, G , Nietzsche et la philosophie, Ed, PUF, Paris, 1973, p.3.

[2] Nietzsche , Humain, trop humain, trad, R.Rovini, idées, Gallimard , 1968, p.24.

[(1)]– Nietzsche: Le livre du philosophe, trad, Angèle Kremer-Marietti, Sigma édition, 1991, p 12.

تأتي هذه الفكرة استجابة لدواعي الظروف الثقافية والأخلاقية التي يجتازها المجتمع الأوروبي، والذي اجتاح فيه النقد معاقل الفكر العقلاني، لذا كان " نقد نيتشه في القرن الماضي العقلانية نقد جذري طال الأسس التي قام عليها كل التراث الفلسفيللإنسانية تقريباً، ولم تنج العلوم الوضعيةمن تجريحه اللاذع وسخريته، فهو يرفض أن تختصر الحياة والطبيعة بكل ظواهرها في صيغ علمية يتداولها الطلبة والعلماء في ما بينهم، ذلك أن أية ظاهرة تخفي كل نشوة الحياة المتدفقة التي لا يمكن لأية صيغة علمية مهما بلغت الدقة أن تحيط بها"[2]، وبهذا يظهر "نيتشه" طاقة كبيرة في احتضان الحياة بشكل لا يقاوم.

لقد استأنف "نيتشه" البحث في المحتوى المعرفي الذي يكمن بداخل الانسان، " نحن لا نعرف أنفسنا، نحن الذين نبحث عن المعرفة. والواقع أننا لم نبحث في يوم عن أنفسنا فكيف يتسنى لنا بأن نكتشف ذاتنا في يوم من الأيام؟ لقد قيل عن حق بأنه حيث كنزك فهناك قلبك، وكنزنا حيث تدندن خلايا معرفتنا. ونحن نسيرباستمرار نحو خلايا النحل هذه"[3] ، هذا النقد يظهر رغبة "نيتشه" إزالة القناع عن وجه الخطاب الفلسفي والعلمي.

هذه النظرية التي سادت تاريخ الفلسفة إلى حدود "نيتشه" الذي ساهم في توسيع وتنسيب مفهوم الحقيقة، فالحقيقة لدى "نيتشه" هي مجرد أوهام وأخطاء مفيدة في خدمة تيار الحياة المتدفق من جهة، كما أنها من الزاوية المعرفية مجرد منظور يعكس موقع ورؤية بل إرادة قوة صاحبه، وبالاضافة إلى ربطها بالصراع الأساس بين رؤيتين للحياة :رؤية وأخلاق السادة ورؤية وأخلاق المستضعفين. لقد تحولت الحقيقة مع ى"نيتشه" إلى قيمة أخلاقية في خدمة الحياة أصبح ينظر إليها من خلال الفائدة والمنظور وصراع إرادات القوة، وبذلك فقد معه المفهوم قدسيته وبراءته، وأصبح مندرجا في لعبة القوى ومنظورات الصراع والتدفق الحيوي [1]، الذي لا تنقطع عنه إرادة الحياة.

من هذا الجانب، أصبح التصور الموجه للحياة أكثر إقبالاً، " إن تصور "نيتشه" في الواقع في الوقت نفسه الذي يدين فيه كل مسارات الفلسفة القديمة، إذ يعين للفلسفة هدفاً جديداً ومختلفاً عن الحكمة حيث يبدو أت هذه الحكمة قد كانت شيئاً متعاليا عن الحياة بطريقة كان يستوجب اكتشافها لأجل تحسين الحياة ، ومن وجهة

---

[2] جورج زيناتي: رحلات داخل الفلسفة الغربية، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 1993.

[3] Nietzsche, La généalogie de la morale, Ed, Gallimard, Paris, 1972, p.7.

[1] – محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، الحقيقة، دفاتر فلسفية، دار توبقال للنشر الدار البيضاء – المغرب، 2005، ص6.

نظر "نيتشه" لا شيء يقع فوق أو خارج الحياة، فالحياة هي التي تخلق قيمها، أهدافها وقوانينها " [1] ، على أساس أنها تعطي لها معنى.

فالغرض من الحضارة لدى "نيتشه" هو ابراز العبقري ، فهذا العبقري العظيم هو وحده الذي يعطي معنى للحياة. أما الذين يقولون بالسعادة لأكبر عدد ممكن منهم فهم واهمون ، فضلا عن انهم يصدرون عن ضعف ويأخذون بمذهبهم نتيجة لاشفاقهم على أنفسهم. والحياة الانسانية غامضة بل ومخيفة من جملة وجوه. وهذا الذعر الذي نحسه في مواجهتنا للحياة وفي شعورنا بمعنى الوجود غنما ينشأ عن أن الله قد مات- كما اعلن "زرداشت" على لسان نيتشه. ومن ثم صار الانسان انساناً فحسب أعني محكوما عليه بالموت وبالنزول إلى نوع من العيش العابث الذي لا معنى له . فالنهاية المقدرة للعالم هي ظهور السبرمان أي الانسان الممتاز ولكن ما هي النهاية المقدرة لمثل هذا الانسان ؟

3- تأثير نيتشه في الثقافة الفرنسية:

لقد بدا واضحاً أن غزو الفكر النيتشوي كان بشكل كبير بسبب الأفكار التي ألهمت الثقافة الفرنسية بطاقة هائلة، إذ أن صورة الفكر هذه التي يتحدث عنها "دولوز" لم تكن من رسم خياله الفكري، وإنما كانت من إيحاء " نيتشوي"، لأن هذا الفيلسوف اعتقد في نفسه أنه مفكر ثائر على قيم عصره وسيحدث عاصفة قوية تمس جميع الكيانات الأخلاقية والسياسية والفكرية والفلسفية بوجه عام، لذلك بشر هذا الفيلسوف بتأسيس ثقافة جديدة لإنسان جديد، لذلك كانت هذه المنطلقات الفكرية أرضية بالنسبة لـ"دولوز" لكي يُفعل هذه الإستراتيجية الفلسفية التي استمدها من "نيتشه" عندما قام بتوظيف النقد الجينيالوجي في تتبع وتعقب الحقيقة وميلاد القيم، " ولكي يكشف نيتشه عن السّر الكامن وراء جميع التأويلات يقترح أن تربط الحقيقة التي تزعم تلك التأويلات للإفصاح عنها بمفهوم إرادة القوة الذي سيصبح أحد المفاهيم الرئيسة في فلسفته " [1].

صحيح أن مجهود " نيتشه" الفكري كان مجهودا في غاية من الأهمية، إذ تجلت آثاره بعمق حين تمكن من قلب المنظومة الفكرية الأفلاطونية، وذلك بتأكيده أن ما يمكن فهمه من السؤال الأفلاطوني، أنه ليس سؤالاً بريئاً، بمعنى أنه يخفي وراء ادعائه الكلية والماهوية والشمولية، يخفي كذلك إرادة السيطرة وفرض إرادة المتحدث التي سوف تكون من قبل فئة الفلاسفة الذين يدركون تماما حقيقة العقل

---

[1] - Jules Gauttier : Nietzsche et la réforme philosophique, société du mercure de France, Paris 1904, p.11.

[1] - عبد الرزاق الدواي: موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر: هيدجر، ليفي ستراوس، ميشال فوكو، دار الطليعة، بيروت(د.ط) ص 35.

وصوت الحكمة، فهذا يمثل إخفاء حقيقي عن النوايا المضمرة، " في حين أن السؤال الذي يقترحه "نيتشه"، هو سؤال واضح وشفاف ومنفتح على حقيقته، لأنه يعلن الإرادة التي تريد أن تسيطر، والكامنة وراء تحديد القيم والمفاهيم " [1] .

يأتي هذا الاعجاب ب"نيتشه"في أسلوب تفكيره، نتيجة الضجة النقدية التي أحدثها والتي تتجلى في آثار العمل الذي أقبل فيه على سلخ المفاهيم التقليدية عن الفلسفة وعن الدين، و توجيه بوصلة العمل النقدي على زحزحت مواقع الفلسفة والدين، والحملة الشعواء على الفلسفة العقلانية ووصفها بالتهكم في لغتها وعلى بحوثها وطريقة استدلالها، بل تزايد الحملة على ثقافة عصره في جميع مظاهرها، ونعتها بالجهل والبربرية، وتسرب المفعول النقدي المكثف إلى داخل المسيحية وعمل على تفكيك أركانها، فكانت البروتستانتية في البدء احتجاجا على الغفرانات ودعوى اصلاح في ادارة الكنيسة والعبادة. ثم زعمت أن الدين يقوم على الفحص الحر للكتاب المقدس، على التجربة الشخصية، بغير حاجة إلى سلطة تحدد معاني الكتاب، ثم تناولت العقائد بالفحص الحر والتحرر من تأثيراتها السلبية.

مادام الحديث عن العقلانية أصبح يحتل مكانة مركزية في المرحلة المعاصرة ، فإن هذه العقلانية تناصر بدورها الدفاع عن المبادئ الأساسية للدين على ضوء أنها بديهية وأن الوحي ليس ضرورياً مادام أولياته قد جبل بها الانسان بالفطرة ، لذلك كان من الضروري التسليم بما يوحي إليه العقل ومسايرة منطقه على أساس أن العقل يمثل خير مقياس للحقيقة، ولهذا وجب التبجيل به والعمل بتعليماته وعلى تقديره سلطته في مواجهة مختلف المزالق الفكرية والدينية التي قد يتعرض لها، هذا الذي حصل مع "ديكارت" حين اعتقد أن الله زوده بكثير من الأفكار الفطرية، لأن " مفتاح هذه المعرفة العقلية هو نور الطبيعة أو القدرة الفطرية التي غرسها الله في عقلنا للوصول إلى الحقيقة بواسطة الأفكار الواضحة والمتميزة"[2]، لكن هذه الطرح لم يصمد أمام النقد النتشوي الذي هز البنيان الفلسفي من أصوله.

---

[1] - جمال نعيم : جيل دولوز وتجديد الفلسفة، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2010، ص 95.

[2] - باتريك هيلي: صور المعرفة، مقدمة لفلسفة العلم المعاصر، ترجمة، نور الدين شيخ عبيد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان 2008، ص 39.